الرجل الأخير في مدينة السعادة

الرجل الأخير

في مدينة السعادة

مجموعة قصصية

أنهار عطية

الرجل الأخير في مدينة السعادة

اسم الكاتبة: أنهار عطية
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: إيمان صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 20496/2018
الترقيم الدولي: 978-977-776-774-3

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
السادس من أكتوبر – المحور المركزي – مول سيتي ستار
01030365801

تم التنويه عن المجموعة القصصية

كأفضل الأعمال المقدمة بعد الأعمال الفائزة

في مهرجان الشارقة للإبداع العربي عام ٢٠١٧ م

إهداء

إلى أرواح لم تكن تعلم مكانتها عندنا و لا كنا نعلم، حتى رحلت.

ذات صباح

لن يفارقني هذا اليوم أبدًا، كان صباح ربيعي، يوم مشمس خال من أتربة ربيع مصر الخانقة، كان العالم كله أمامي.. شاب في السنة النهائية لكلية الهندسة، عضو نشط باتحاد الطلبة، تتمناني جميلات الجامعة ولا تروقني أي منهن، كنت أشعر أن هناك أفضل ينتظرني أو ربما فقط لم تخطف إحداهن قلبي.

كان صباحًا موائمًا لرحلة خططتها منذ شهر لطلاب السنة النهائية، أردتها مميزة، فرفعت سعر اشتراكها لأضمن أفضل وسائل النقل وأفضل أماكن الإعاشة لزملائي.

كان صباحًا رائعًا يستوجب الاستمتاع به لأقصى درجة، وبينما أنا متحمس بجوار الحافلة أستحث زملائي سرعة الحركة حتى نستمتع بيومنا من البداية، كانوا هم يجرون أرجلهم كمن يحمل قوالب أسمنتية.

كان صباحًا تحمله الشمس بين طياتها كوليد بكر، كانت الرحلة في موعدها المناسب قبل شهرٍ من الامتحانات وبعد انتهاء موسم الأمطار، وإن كان قد استوجب مني الأمر الكثير من الإقناع للزملاء بأن يشتركوا بها، ففي النهاية كانت الرحلة باهظة مقارنة بوجهتها في الفيوم حول بحيرة قارون، ولكني أقنعت زملائي أنهم يستحقون الأفضل فهم على وشك أن

يتخرجوا ليصبحوا "الباشمهندسين" ومن ثم لا يجب أن يقل ثمن الرحلة عن هذا الذي أنفقوه.

كان صباحًا باسمًا بينما تعالت أنغام الموسيقى التي أبى أن يتحرك عليها الزملاء، لم يكونوا كعادتهم، كانوا صامتين، وكأنهم في زمان آخر، حاولت قدر استطاعتي أن أغير من الجو العام بتذكرتهم بأنها آخر رحلاتنا سويًا، كان كل منهم يصطحب فتاة أحلامه معه، كان كل منهم ممسكًا بيد فتاته يحلم معها بما بعد التخرج، بالمجهول الذي أرادوه سعيدًا.

كان صباحًا لا تعود الحياة بعده أبدًا كما كانت، وجدتني فجأة وكأنني ريشة تحملها الرياح أنقلب رأسًا على عقب داخل تلك الحافلة، في لحظة شعرت بعجز ذبابة تحملها الرياح من مكان إلى آخر دون سيطرة منها، ثم أظلم الصباح.

كان صباحًا لم يأتِ بعده صباح آخر، بقيت وحدي عالقًا في الحياة تلك من بعده، تظلم الدنيا وتشرق ولا يأتي من بعده صباح آخر، لا أدري متى خرجت من المشفى وحتى لم أهتم بما انتهت إليه التحقيقات، أخبروني فيما بعد أن الحافلة كانت قديمة، وبّخوني فيما بعد لاستئجاري من غير الثقات، قاطعوني لأني طمعت في قروش قليلة اقتصصتها من أرواح زملائي.

كان صباحًا يتوقف عنده الزمن، تصحو كل يوم فلا تلمسك أشعة الشمس في تلك الغرفة العطنة التي أغلقت عليك بابها، تجتر ذكريات

أناس توقفت أعمارهم ذلك الصباح بينما امتد عمرك، ولم تتبعه حياتك، حياتك التي توقفت في ذلك الصباح.

كان صباحًا أردت لو عشته مرة أخرى وأغير ما حدث فيه، ولكن قوانين الطبيعة أبت.

ثم كان صباحًا فتحت فيه شرفتي لأول مرة منذ أشهر، منذ ذلك الصباح، منذ توقفت الساعات، وقفت أشم الهواء النقي، أتحسس أشعة الشمس تحتضنني لمرة أخيرة.....

كان صباحًا مفعمًا بالأمل حيث وجدتهم كما ألفتهم دومًا تملأ الابتسامة وجوههم، استقبلوني دون عتاب في تلك الحافلة المنطلقة في رحلة، وحتى نصل سوف نظل نتراقص على أنغام الموسيقى ونحلم.

على الطريق

هو ذات الطريق أمر عليه كل مرة، أرحل من بيت زوجي إلى بيت أخي، أمكث يومين بأطفالي، في أول يوم يتوعد أخي زوجي بالويل والثبور وعظائم الأمور، ثم بنهاية اليوم الثاني يبدأ حديثه عن طاعة الزوج التي من طاعة الرب فأجد نفسي مرة أخرى على ذات الطريق أعود أجر ابنتي وأحمل ابني، أعود دون أن يبحث عني زوجي.

أدخل البيت أعتذر عن تهوري، وعن عدم احتمالي له في ساعة غضب، وعن الإفصاح بسر بيتنا عند أخي، وعن سمعته التي آذيت لكونه مدخنًا للمخدرات التي يصرف عليها من عملي خادمة في المنازل، عن ضربه لي، وتركه النذر اليسير لي ولأولاده لنأكل به، أعتذر أنني لا أتحمل أمه التي بدورها تنتظر أن أخدمها حال عودتي من عملي متعبة.

أقف أمامه في انتظار الصفح، وأنا بداخلي أبصق على اليوم الذي رأيته فيه.

أخيرًا يصفح عني، أدخل غرفتي التي تبدو كحظيرة خنازير فقط لأني غبت يومين عن البيت، أنظفها، يلحق بي، يأخذ حقوقه الشرعية مني، يتركني وينزل من دون كلمة، أنام وفي الصباح أذهب للعمل، أتعب من أجل لقمة عيش قد لا أنالها، أذهب إلى بيتي، أخدم أمه التي تتأفف من جلوسها مع أحفادها طوال اليوم، يعود ليلاً دون أن يجني مالاً، يأخذ

نقودي، أعترض، يضربني، أتحمل لأسبوعين آخرين، ثم يفيض بي الكيل، أترك البيت، أذهب إلى بيت أخي، يتوعده بالويل، ثم أرحل في اليوم التالي، وما بين كل مرة وأخرى سوف تراني دومًا على الطريق.

رانيـا

كان قلبي معلقًا بحب أميرة أبعد من النجوم بالرغم من قربها مني، كنت أراها كل يوم منذ نعومة أظفاري، ذهبنا سويًا لنفس تلك المدرسة، ونفس النادي، كبرنا سويًا، أنا ورانيا.

كنت أراها تكبر أمام عينيَّ، وتكبر معها مشاعري، من طفل يجهل سبب غضبه من حوار طفل آخر معها، أو سبب قلقه لغيابها اليوم عن المدرسة، أو سبب سعادته لأنها تذكرته بقطعة حلوى من تلك التي اشتراها لها أبوها، من طفل يراها كائنًا نورانيًا، إلى مراهق يشتهي لمسة منها أو حتى ابتسامة، مراهق تحرقه غيرته عندما يراها تضحك لزميل آخر، يقسم بينه وبين نفسه أنه لن يأبه لأمرها مرة أخرى، ويذوب قسمه مع أول سلام باليد منها.

كنت أراها تتحول شيئًا فشيئًا إلى امرأة كاملة الأنوثة بشفتيها المكتظتين وقوامها الرشيق، كنت أتابعها بعيني أينما حلت وأداري نظرة ملؤها الخجل أخشى أن تراها هي فتبوح لها بما أكتمه من سنين.

رأيتها تسافر بعيدًا، من أجل دراستها، وأنا لا زلت هنا أكافح في وظيفتي لأنجح، لربما أسعفتني مشاعري وبحت لها بما كتمت طوال سنوات، رأيتها تركب الطيارة وقلبي أراد لو تمددتُ أمام عجلاتها مانعًا إياها أن تقلع وتأخذ روحي معها ولكنني لم أفعل.

رأيتها تعود وقد زادتها سنوات الغربة بهاء على بهائها، وتتحضر لتقوم بإدارة أعمال والدها التي أصبحت أنا شريكًا فيها بمجهودي، رأيت كيف كان الجميع يتوقع مني أن أحادثها وأصارحها بما جاش في قلبي من مشاعر لم أقوَ أبدًا على البوح بها، لم يعد بيني وبين الحلم سوى كلمة.

ولكن ماذا لو أفقت من الحلم لأجد أنه لم يكن سوى صورة جميلة في خيالي شئت لها أنا أن تكون بهذا الكمال؟ هل سوف يتحمل قلبي واقع الحلم؟

وبينما أنا واقف مكاني أحاول حسم أمري، جاء من حسم أمره بالفعل.

رأيتها عروسًا بفستان أبيض، رأيتها أبهى وأشهي نساء الأرض، رأيتها من وراء ساتر دموع حال بيني وبين صورة واضحة لها، فظلت كما هي في ناظري، كائنًا نورانيًا.

نعم لا زلت آنسة

كان أول اجتماع لي مع ممثلي فروع الشركة في كل مكان، قد يتعجب البعض من أن هذا أول اجتماع لي في حياتي العملية، فقد تخطيت حاجز الثلاثين الأليم منذ عدة سنوات، وهي وصمة لو تعلمون عظيمة خاصة إن كنت بلا زوج، أما عن سبب تأخر حياتي العملية بهذا الحد فالإجابة بسيطة أنه أبي العزيز، أبي كان من هؤلاء الرجال الذين يظنون أن رفعة المرأة في بقائها في بيتها، تخدم كأميرة وزوجها يتولى أمورها المادية، أردت أن أطيع أبي وصراحة لم يكن لي طموحات كثر، كنت ككثير من الفتيات أريد بيتًا وزوجًا وأن أكون ملكة متوجة كما يقول والدي، فتخرجت في الجامعة ومكثت في البيت أنتظر ذلك الذي سوف يجعلني ملكة متوجة، كنت كل عام أحضر أفراحًا كثر، أهنئ العرائس، يتمنين لي الحظ الوافر، يهمسن بوجود العديد من أصدقاء العريس "العزاب" في الفرح، يضحكن وهن يقلن لي هيا انتشري فلعلّ يصيبك حظا، وعامًا بعد عام كانت الأفراح تقل وكذلك أصدقاء العرسان "العزاب"، ثم بدأ زواج من هن أصغر مني سنًا وأصدقاء عرسانهن أيضًا أصغر مني سنًا، وبقيت أنا من بين كل رفيقاتي دون زواج، فتوقفت عن حضور الأفراح، ما الطائل، نظرات التأسي عليّ تقتلني أكثر من الوحدة، لذلك حفاظًا على سلامي

النفسي توقفت عن حضور الأفراح، لكني بالفعل مللت من سنوات الحبس ما بين جدران المنزل مع أمي، وافق أبي على مضض أن آخذ بعض الدروس في إحدى الجامعات الأجنبية لأحسن لغتي، على سبيل تغيير الجو وليس لأنه غير رأيه بخصوص عمل المرأة، غيرت تلك الدروس من بعض الملل في حياتي، إلا أن غصة لا زالت في حلقي، فأنا في تلك الدروس جميعها الأكبر سنًا بين الإناث والذكور، أي لا تغيير في حياتي سوف يحدث عما قريب.

ولكن تغييرا قد حدث، إلا أنه ليس بالضرورة للأفضل، فقد توفى والدي، فجأة رحل دون أن يمرض، دون تحذير، رحل صموتًا، تركني وحدي في العالم من دون سند أو رفقة، بينما كان يرثيه الجميع كنت أنا من أشعر باليتم بالفعل، فهذا أبي الذي ذهب، كان ملكًا وأنا أميرته التي يرعاها، من يرعاني من بعده، مر على وفاته أسبوعان وأنا كقطة ملتفة حول نفسي في فراشي لا أخرج من تحت غطائي، حتى دخلت أمي إلى غرفتي هذا المساء، كان يبدو عليها القلق وكأنها لا تدري كيف تفاتحني فيما جاءت إليّ لتحدثني فيه.

قلت لها: "ماذا هنالك يا أمي؟"

قالت والحزن يطل من عينيها: "معاش والدك سوف يقل بوفاته، وهو بالكاد كان يكفينا، لا أعلم ماذا سنفعل الآن؟"

لم أستمع لبقية حديثها، فقط وضعت الغطاء على رأسي لأحمي نفسي به من العالم، كما كنت أفعل وأنا صغيرة ألعب الغميضة، أختبيء تحت غطائي لا يراني أحد ولا أرى أحدًا.

في الصباح كنت قد أخذت قراري وأبلغت به أمي، سوف أعمل، لا طائل من بقائي هنا في المنزل وأنا أحمل شهادة وأستطيع أن أكسب مالاً يعيننا على صعوبات الحياة، بحثت طويلاً حتى وجدت عملي هذا منذ عام، وبنظرة خبرة حولي في الشركة من الأسبوع الأول وجدت أن جميع الرجال ممن هم في نفس عمري متزوجون، أما الباقون فيصغرونني سنًا بسنوات عدة، فوضعت كل طاقتي في العمل، كنت أعمل في ساعات العمل الرسمية، وخارج ساعات العمل الرسمية، كنت أخصص كل وقتي للعمل حتى لا تخطر على بالي أية أفكار أخرى، حتى أتى اليوم الذي قام به مديري بترقيتي ثم دعوتي لحضور اجتماع مديري فروع الشركات معه، كنت فخورة بمجهودي طوال عام ماض، كنت فخورة بعملي وسعيدة به، انتظرت اكتمال العدد في غرفة الانتظار أمام بهو الاجتماعات وبينما أنا أتصفح هاتفي المحمول لأتفقد بريدي الإكتروني، نمت إلى أنفي رائحة عطر قوية، أجبرتني أن أرفع عيني من على هاتفي وأرى مصدرها، كان وسيمًا كنجوم السينما بقوامه الرياضي الممشوق وطلته الرائعة، وابتسامة زيّنت وجهه وهو يتحدث في هاتفه، حتى صوته الدافئ كان يحتضن أذنيّ، بقيت عيناي معلقتان به كبلهاء، حتى شعرت بعينيه

تنظران ناحيتي، واختفت الابتسامة من على وجهه وهو ينظر تجاهي، احمرت وجنتاي خجلاً وعدت أنظر مرة أخى إلى هاتفي، أتظاهر بالانشغال وأشعر به يتجه نحوي، اعتدلت في مجلسي دون أن أنظر ناحيته، ثم خطرت ببالي خاطرة، لِم لا أنظر إلى بنصره الأيسر، كيف يفوتني شيئا كهذا، وهنا شعرت به يجلس على كرسي مجاور، ثم بدأ في الحديث معي:

."أعرفك بنفسي، أنا حاتم، حاتم عرفات، العضو المنتدب لشركة النسيج"

تظاهرت بالانشغال ثم رفعت عينيّ لتلتقي بعينيه اللتين تبدوان كفنجاني قهوة لا يظهر قاعهما:

."إنجي حسنين، مديرة التسويق في الفرع الرئيسي"

مد يده اليمنى ليصافحني فمددت يدي المرتعشة لأصافحه، كنت قد وددت لو مد يسراه حتى أتأكد من وجود دبلة زواج.

."هذه أول مرة أراكِ فيها"

."نعم فلقد ترقيت منذ أسبوع واحد فقط"

."وكيف تجدين عملك معنا"

كانت يمناه ما زالت ممسكة بيمناي فسحبت يدي، ووجنتاي تحترقان خجلاً:

." ممتع، حتى الآن أجد عملي هنا ممتعًا"

وهنا ارتفع رنين هاتفه فقام من مجلسه ليرد على المتصل، وابتعد، بقيت عيناي معلقتين على يديه، تنتظر تلك اللحظة التي سوف ألمح فيها يسراه، أناور برأسي دون أن يلحظ، حتى لمحتها، بنصره خالٍ من خاتم الزواج، أهذا يوم سعدي أم ماذا.

إذًا هو غير متزوج، يا الله هل تتحقق أحلامي اليوم ويكون هذا الرجل لي أنا، هل أكافأ أخيرًا على طول الانتظار، سوف تحضر كل من كانت تتأسى على حالي في يوم عرسها، سترى كل واحدة منهن كيف أن طول انتظاري أتى برجل أوسم من كل رجالهن مجتمعين، بل أكثر ثراءً أيضًا، والأهم من ذلك وتلك أنه يريدني أنا، أنه اختارني أنا، التفت ونظر ناحيتي وهو لا يزال يتحدث في هاتفه، وهنا التقت عيوننا مرة أخرى، فابتسم، رباه لابد أن يحرّموا عليه الابتسام رأفة بقلوب النساء قليلات الحيلة أمام سلاح ابتسامته الفتاك هذا، أذاب قلبي واقترب وهو لا يزال يتحدث في هاتفه وعلى وجهه ذات الابتسامة الفتاكة، أنهى حديثه وعاد إلى نفس مقعده بجانبي.

حبست أنفاسي منتظرة أن يبدأ مرة أخرى بالحديث وهو لم يكذب ظني:

. "ولكنك تبدين صغيرة سنًا على منصب مديرة التسويق، كيف تجدينه؟"

دون أن أفكر أجبت:

."أجده ممتعًا جدًا وأحظى بالكثير من الخبرة يومًا عن يوم، أشكرك على سؤالك"

مط شفتيه ثم قال:

. "كمديرة تسويق عليكِ أن تبني الكثير من العلاقات، أقول لك، علينا أن نحتسي فنجان قهوة بعد الاجتماع في أي مكان تختارين، فلديّ الكثير مما أريد أن أتشاركه معك".

دون أن أنتظر قلت:

. "طبعًا، ليس لديّ مانع، تعلم فأنا ليس لدي ما أفعل عادة بعد العمل"

نظر إليّ بتعجب:

."فتاة جميلة مثلك ليس لديها ما تفعله بعد العمل، عليكِ بالخروج ورؤية العالم قبل الزواج... آه آسف أنتِ لستِ متزوجة.. صحيح؟"

."لا لست متزوجة"

."إذًا استمتعي بحياتك قبل أن يأتيك من سيخطفك على حصانه"

وهنا قاطع صوته صوت أنثوي، اتجهت عيوننا سويًا لمصدر الصوت، كانت أنثى بمعنى الكلمة، رائعة الجمال، ممشوقة القوام، تنتعل حذاء ذا كعب عالٍ، وترتدي فستانًا أسود بالكاد يصل إلى ركبتيها، يظهر جمال فستانها شعرها الأشقر المنساب على كتفيها، كنت أبدو

بجوارها رثة الثياب، في تلك اللحظة علمت أنني خسرت الحرب، اتجه إليها وسلم عليها، كنت أعلم أنه لن يعود إليّ مرة أخرى، علا الحزن وجهي وعدت أنظر إلى هاتفي المحمول وأكتم دموعي، حتى شعرت به يجلس إلى جواري مرة أخرى، ثم قال:

. "هذه فريدة مديرة التسويق في شركة النسيج يجب أن تتعرفي عليها، صداقتك بها سوف تفيدك جدًا"

أجبته:

."بالطبع"

سكت ثم أكملت:

."وهل تعرفها أنت جيدًا"

أجاب بسرعة:

."نعم منذ فترة طويلة"

ضحكت من داخلي "ها هو ذا عاد لي مرة أخرى، إذًا هو لي أنا وحدي من دون غيري، عاد إليّ واختارني أنا"

عدت لتخطيط فرحي مرة أخرى، إلى فستاني، وزينتي، وزوجي المستقبلي.

كانت قاعة الانتظار قد امتلأت عن آخرها، وهنا قام "حاتم" ليصافح بعض القوم ثم نادى عليه أحدهم:

."حاتم كيف أنت؟!"

كان يبدو من نبرته أنه يعرفه جيدًا، قال حاتم:

."أنا على خير ما يرام"

."وكيف حال زوجتك وأولادك"

هنا وقع الهاتف من يدي أرضًا

."كلهم بخير الحمد لله"

لا أدري كم من الوقت قد مر وأنا أنظر إلى هاتفي الملقى أمامي أرضًا، لا أنا أنحني لألتقطه، ولا أنفك أتوقف عن النظر إليه.

هنا اقترب مني حاتم وصاحبه وبادرني صاحبه قائلاً:

."أنتِ بالتأكيد السيدة إنجي مديرة التسويق الجديدة"

قلت وأنا أرفع رأسي عاليًا:

."آنسة.. آنسة إنجي"

من بعيد

بجوار نافذتي أنتظر كل يوم قادمًا لن يأتي اليوم أو ربما ينسى ولن يأتي طوال الأسبوع....

يتركونني هنا بالساعات وينسون أمري، أظل قابعًا في الشمس حتى يحترق جلدي، يتذكرني أحدهم ينقلني من الشمس إلى الظل دون مراعاة لفرق الحرارة، فأمرض، لا يلحظ أحدٌ مرضي قبل يومين....

ينسين أنني ما زلت حيًا، يتحدثن أمامي عن علاقتهن بأزواجهن، وكيف قضين ليلتهن، ينسين أنني رجل، فيستفضن في تفاصيل تخجلني.

ينسونني، فيظل أنبوب الطعام الموصل إلى ذراعي فارغًا، بينما أنا لساعات دون محاليل، أشعر بالدوار، فلا أقوى على نداء، أنتظر خلاصي من هذا الوعاء المتهالك فتنطلق روحي لسماوات بعيدة، ألقى فيها وعدًا ينتظرني، يتجدد فيّ الأمل بالخلاص، فلا يحدث، يتذكرني أحدهم بينما أنا على أبواب حرية من هذا السجن يعيدني إليه مرة أخرى، أجدني أبكي بلا دموع، فلا أسوأ من انقطاع الأمل بعد تجدده.

بينما الناس نائمون ليلاً كما هو ناموس الكون، أنا لا يختلف أمر ليلي عن نهاري في شئ، لا أنعس ليلاً ولا أستفيق نهارًا، أظل هكذا في حالة ما بين النعاس والإفاقة، أتمنى لو بقيت نائمًا، فالإفاقة لا تعني سوى

الانتظار، وأنا مللت الانتظار، حتى الملل أو السأم لم يعد يفي ما أشعر به حقه، ولكن النوم يأبى أن يأتي وقتما أشاء أنا فأظل رهنًا للواقع.

بم أفكر في ساعات إفاقتي؟ فكرة واحدة لا غير هي ما تستحوذ على عقلي، كيف ولم؟ والأهم متى؟

كيف انتهى بي الحال هكذا؟ أنا أنشط شباب عائلتي، أنا الفارس الهمام، والذي كانت صوري مع الخيل تملأ بيتي، أمل أبي الوحيد، وابنه البكر، والأخ الوحيد لفتاتين.

ولم؟ لمَ لم أسمع كلام مدرب الخيول عن تلك الفرسة الجامحة وأنتظر ترويضها ..... لِمَ؟

متى؟ لا أعلم، توقفت عن حساب الزمن، أنا فقط أتواجد في المنطقة صفر من الزمان، فالعالم يتحرك وأنا كما أنا.

أذكر دموع أبي عندما كان يزورني، كانت تنزل عليّ لتحرقني، وعجزي عن مسح دموعه يؤلمني، ثم توقف أبي عن زيارتي، وكذلك أخواتي البنات.

في وضعي هذا تفقد الإحساس بالزمن، فالأيام لا معنى لها لمن لا يستطيع أن يغير في عالمه، لمن يرقد ليتنفس فقط. لا أعلم كم الوقت الذي ابتعد فيه أخواتي ولكنهن عدن متشحات بالسواد، كانت زيارتهن الأسبوعية لي، كما سمعت منهن وليس كما حسبت، بمثابة متنفس لي، أرى منه وجوهًا عزيزة، أشعر مرة أخرى بأنني هنا على تلك الأرض مع البشر. حتى بت أشعر أن زيارتهن واجب ثقيل عليهن، يقمن بها بلا رغبة،

وحتى لمساتهن التي لا أشعر بها، وإن كنت أنتظرها، توقفن عنها، فقط يأتين يقبعن صامتات، أو يتحدثن سويًا، ينسين أني هنا، فلا يتحدثن إلي، يلعب أطفالهن بعينيّ اللتين بالكاد أقوى على غلقهما، لا ينتبهن إلا بعد فترة، يزجرن أطفالهن ثم يتحججن لبعضهن بالأطفال ليسرعن بالرحيل وكأنني الأجرب.

يرحلن وأنتظر من بعدهن الموت ليخلصهن من حمل زيارتي، ليخلص الممرضات من عناء حملي لتغيير الأغطية، أنتظر الموت ليخلصني من عنائي..... ولكنه يأبى أن يأتي.

أظل قابعًا بجوار نافذتي لا أنتظر أحدًا.....

الرجل الأخير في مدينة السعادة

كانت تسمع ذات القصة من جدتها على مدار سنين طفولتها اليافعة، عن ذلك الرجل الذي عاش يومًا في مدينة السعادة حين كانت المدينة اسمًا على مسمى، كان وقتها للرجال شكل آخر غير ذلك الذي شبت عليه وإن كانوا في زمن شباب جدتها قد تناقصوا حتى بقي منهم رجل واحد يقال إنه هرب هناك ولا يزال يحيا آملاً أن يعود يومًا ويثأر لباقي رجال مدينة السعادة.

كانت حرب ضروس، تلك التي قضت على كل رجال المدينة، تتذكر جدتها بينما تلمع عيناها، تلمح فيها الفتاة الصغيرة، فتاة أخرى من سنها، وليس جدتها التي حفر الزمان بوجهها تضاريس حياة كاملة، تسعد الفتاة بحكايات جدتها عن تلك الكائنات الأسطورية "الرجال" فما رأت الفتاة ولا سمعت من يوم شبت على الحياة رجالاً، فقط الذكور الذين تبقوا في المدينة، هؤلاء الذين يحكمون المدينة منذ عقود، فقد ورثوا الأرض عمن كانوا رجالاً قبلهم في حرب فازوا فيها بالخسة فبقوا، وحكموا المدينة دهرًا، كانوا كالرجال في مظهرهم، يلبسون كالرجال ويتكلمون بنفس صوتهم الأجش، بل ويتناسلون مثلهم أيضًا، وهو الأمر الذي لم تفطن إليه الفتاة الصغيرة بعد، فهي ليست في سن الزواج بعد.

لم ارتضت النساء الهوان، لا أحد يعلم، فقد كن الكريمات المعززات في عهد الرجال، لم يجبرهن رجل قط على زواج أو على إنجاب أو على عمل أو على التخلي عن عمل أو إرث، لم يضربهن رجل أو يهينهن، لم يحملوهن مشقة ولا عاملوهن بضيق، لم يتخذن عليهن زوجات إلا بموافقة وترحيب وفيما ندر، وإن أبين لم يبخسوهن حقهن عند الطلاق، ولم يخرجوهن من بيوتهن، هؤلاء كانوا رجالاً.....

ثم ظهر آخرون، في البداية تشابه عليهم الأمر، ظنوهم رجالًا، ولم لا؟ وهم يلبسون مثل الرجال ويتحدثون كالرجال، كانوا غرباء عن مدينتهم ولكن كعادة الرجال استقبلوهم بحفاوة، وعاملوهم كأصحاب بيت، بل وزوجوهم من بناتهن.... كان لسانهم لا ينطق العيب.... كان ذلك قناعهم الذي سقط عنهم فيما بعد...

كانوا يتدفقون من دون توقف، كسرب جراد رأى أميالاً من الأخضر فحط عليه، كانوا يخططون لإبادة الرجال دون أن يدري أحد أنهم شرًا يضمرون.

حتى كانت ليلة الحرب الضروس، حين أدركوا أنهم ازدادوا عددًا، وهجموا على بيوت الرجال ليلا بخسة ودناءة لم يعهدها سكان مدينة السعادة، لم يروا ما فعله الذكور قائمًا، لم يتوقعه أحد قط، ولكن الرجال كانوا رجالاً، حاربوا، دافعوا عن أنفسهم وحرمات بيوتهم

ونسائهم، ولكن لابد أن من قال إن الكثرة تهزم الشجاعة كان حاضرًا تلك الحرب الضروس.....

لم يُبقِ الذكور على الأرض أحدًا من الرجال إلا رجلا قيل إنه هرب ليعد العدة للقائهم مرة أخرى، ومضى عقد ثم آخرولم يعد، ولا يعلم أحد إلى أين ذهب، أما النساء فقد هُدّدن، خضعن، جردن من أملاكهن ومما ترك لهن الرجال، حتى أولادهن من كان منهم من الذكور عاش أما من أظهر صفات الرجال قتل...

لم لم تحارب النساء وتذدن عن أنفسهن لا أحد يعلم! ربما لأنهن اعتقدن في أنفسهن الضعف، أم أنها حماية الرجال لهن، تلك التي عشن في كنفها عمرًا وترعرعن فيها، أضعفتهن، فلا هن تحملن مسئولية ولا حملن مشقة، لا أحد يعلم، ولكنهن خضعن ثم ذللن، ثم أُهِنّ بعد أن كن الكريمات... ولم يتبق من حياتهن السابقة إلا أسطورة تتناقلها ألسنتهن عمن عاشوا هنا من قبل.

كانت الفتاة الصغيرة تسمع ذات القصة منذ نعومة أظفارها، حتى جاء يوم كبرت فيه، وأتى أحد الذكور يريدها، وكان ابن أرذلهم، كانت الفتاة التي كبرت على سيرة الرجال آنفة من تلك الزيجة، لم تشأ أن يُفرض عليها رجل، وأرادت لنفسها مصيرًا آخر.....

صدقت الأسطورة بقلبها، تسللت ليلاً بجرأة وليس بخسة الذكور، تبحث عنه خارج حدود مدينة السعادة، تنتوي أن تضع نفسها تحت تصرفه، أن تساعده في العودة مرة أخرى إلى مدينة السعادة، أن يقيم حكم الرجال الذي يومًا كان، كان بنظرها الأمل والرجل الأوحد في مدينة السعادة.

بحثت عنه كثيرًا، جابت الأراضي المقفرة حول مدينة السعادة ولم تستدل عليه، حتى خارت قواها ذات ليلة تحت الأمطار وغابت عن الوعي، أفاقت بعدها بصعوبة لتجد نفسها متدثرة بما يبدو أنه فراء حيوان ما... قامت من نومتها لتنظر حولها وجدته هناك بجوار النار، وما حولها يبدو ككوخ مزري الحال، كان كهلاً تتعدى سنو عمره الستين.

نظر إليها دون أن يتحدث، ثم عرض عليها الطعام فأبت، وهنا سألته:

."أيعقل أن يكون أنت؟!"

نظر إليها بتعجب قائلاً:

."أنا؟!"

هزت رأسها بحماس:

."نعم.. الرجل الأخير من مدينة السعادة"

أجابها دون أن تتحرك قسمات وجهه:

."هو كذلك"

اقتربت منه:

. "لقد خرجت متسللة من المدينة بحثًا عنك، لقد ضاق الحال علينا، لِم لَم تعد؟ لِم لَم تنقذنا؟! كيف تركنا كل هذا الوقت؟"

كان الحزن يملأ عيني الرجل ثم تبدلت النظرة إلى القسوة بينما قال:

. "خنتن عهدنا وتلمنني أنني لم أعد؟!"

أغلق عينيه فهربت منهما عبرة ثم أكمل:

. "أعد لمن؟ ألم تتزوجوهن؟! ألم تنسين رجالكن؟! أعود لأذود عن من؟"

قاطعته:

. "لكن ألا تعلم؟! النساء أجبرن على كل تلك الأمور بعد..."

قاطعها:

. "لِم قبلتن الذل وأنتن الحرائر؟ ابنتي... أظن أن لو لي ابنة لكانت ستصبح في مثل عمرك.... لن أعود لأذود عنكن، فخيانتكن لا زالت نصلاً في صدري وجرحًا ينزف، ذدن عن أنفسكن، ارفضن العاروالهوان...."

قاطعته:

. "ولكننا ضعيفات"

ابتسم:

."هذا ما تردن ظنه ولكنكن لم تكن قط ضعيفات، اذهبن وانقذن أنفسكن، فقط عندما تسود النساء سوف يعود الرجال، فبلا نصر من النساء سوف يبقى الذكور"

توقف بعدها عن الكلام، وفي الصباح التالي أمرها بالرحيل.

وقفت أمام كوخه وقد سقطت أسطورة المنقذ من رأسها، أدركت أن لا أمل لها إلا هي.... ولكن هل تفهم بقية النساء!

صديقي

كانوا يحسدون صداقتنا التي امتدت عبر سني عمرنا الثلاثين، فأمهاتنا كن صديقات، وأخواتنا الفتيات كن صديقات أيضًا، فولدت صداقتنا أنا وحسن.

بينما كان هو الأنبه دراسيًا، كنت أنا البطل الرياضي، بينما كان هو الأعقل بيننا كنت أنا الأكثر وسامة، كانوا يظنوننا سنفترق، فصفاتنا لا تتفق أبدًا.

كبرت وصرت أنا اللعوب، بينما صار حسن المثالي، دخلنا كليتين مختلفتين، ولم يمنع هذا التصاقنا ببعضنا البعض، كان حسن يخجل من بعض تصرفاتي، وأنا أخجل من خجله أمام الفتيات، ولكن هذا لم يوقف صداقتنا يومًا.

تخرج حسن وعمل بإحدى الشركات الكبيرة، وتخرجت أنا وقررت أن أسافر وأرى العالم، أعمل أعمالاً حقيرة في بلدان بعيدة، تساعدني في تمويل رحلاتي المكوكية، ووقعت على كنز، كانت فتاة أبيها المدللة، لا يرفض لها طلبًا، وهي لا ترفض لي طلبًا، تزوجتها خلال شهرين من تعارفنا، فتحت لي أبوابًا ظننتها من صعوبتها لا تفتح، لم أحبها قط وكنت أعلم هذا، لم أخدع نفسي أبدًا، ولذلك حرصت كل الحرص ألا تحمل ابني في

أحشائها، اغترفت من الثروة ما أعماني، ثم عضدني ما اغترفت فلم أعد بحاجة إليها، فتركتها، لم آبه لصراخها وضيقها، بلغت غايتي وكفى.

عدت إلى بلدي مرة أخرى وقابلت حسن، الذي غيرت شكله عشر سنوات، ظل طوالها يعمل لدى الآخرين يكسب القليل، بينما يغترفون هم الثروة من ورائه، علمت أنه تزوج وصار له من الأولاد ثلاثة، سألته عن حاله، فحدثني عن غلاء الأسعار وصعوبة المعيشة، أردت أن أساعده، فطلبت منه أن يترك شركته ويصبح شريكي في عمل أفتتحه في مصر وأترك له إدارته، رفض، سيظل كما هو يخشى المغامرة.

دعاني إلى بيته ذات ليلة، فقبلت على مضض، فما الذي يمكن أن يقدمه لي بيت لأسرة متوسطة، ولكنه بيت حسن فكان علي أن أقبل وقبلت.

كانت أسرته سعيدة بحق، وأولاده أصحاء أشقياء، ولكن ما لفت انتباهي حقًا كانت زوجته، المرأة كانت جميلة، والأهم أنها كانت سئمة، ربما ملت من تقليدية حسن، أو من حياة الأسرة المتوسطة، أو ربما هو أنا فقط... ولكنني صياد ماهر، وأعلم النساء جيدًا، وهذه المرأة تنتظر فخي، تمامًا كما أنتظر أنا سقوطها فيّ.

انتهت السهرة ولم أقابل حسن بعدها، تعللت بانشغالي في بدء أعمالي هنا قبل العودة مرة أخرى إلى بلاد المهجر، وكنت أراها في خلفية

إلحاحه على العشاء في بيته، فتركتها تنضج على ناري الباردة، ولم أعطه موافقتي على القدوم.

لا أدري إن كانت فعلاً صدفة ولكنني وجدتها على العشاء في بيت أختي، بدون حسن، رميت طعمًا، وابتلعته، سألتها عن رغبتها في العمل لدي، فوافقت حتى دون الرجوع لزوجها وتبادلنا أرقام الهواتف، ولم تنتظر حتى أن أبادر بالكلام، فحدثتني ليلتها.

كانت تريد السقوط وأنا أشعر بالملل، فتركتها تلف الحبل جيدًا حول رقبتها وتُحكم عقده، دعوتها إلى غرفتي الفندقية لمناقشة بعض الأعمال، واستجابت، جهزت كل شئ للقائها وانتظرت.

دقت الباب وعلت الابتسامة وجهي، ها هي قد أتت في ميعادها، أود أن أرى انطباعات وجهها عندما يُفتح لها الباب، إلا أنني لن أتمكن من ذلك.... لأنني لست أنا من سيفتح لها الباب، بل صديقي وزوجها العزيز.

لِم فعلت هذا، لا أدري، أردت أن أريه أنني الأفضل منه، ظل الكل يحاول أن يغيرمني في طفولتي، أن يجعلني أقتضي بحسن، وها هو ذا حتى امرأته اختارتني أنا، أنا الأفضل منه.

وهو كان هنا ليشهد هذا الأمر...

ألا يخلصنا الله منكن

لم يكن الطريق مزدحمًا على غير العادة، لا أعلم لماذا انقبض قلبي وأنا أنطلق بسيارتي على هذا الطريق، كنت لتوي قد ودعت زوجي، وانطلقت لأقضي عملاً طُلب مني، نظرت في مرايا سيارتي ولم أجد أحدًا خلفي أو على جوانبي، شعرت بسخف إحساسي غير المبرر، حاولت الاسترخاء في مقعدي وأدرت مؤشر الراديو على إحدى محطات الأغاني السخيفة، أردت فقط أن يلفت شئ انتباهي ويصرف تفكيري، تعالت أنغام الأغاني وبدأت أسترخي في مقعدي.

كان صوت عالٍ كصوت الهدير يقترب مني، نظرت في مرايا سيارتي، كانت سيارة صغيرة الحجم زجاجها كله من اللون الأسود الغامق، بدأت أتحرك بعيدًا عن طريقه حيث كان يسير كالسهم وأخشى أن لا يستطيع تهدئة سرعته في الوقت المحدد، ابتعدت عنه فمرق من جانبي كالسهم، وانطلق مبتعدًا، حمدت الله وتعجبت لأمره ثم فجأة انحرف عن طريقه ودار حول نفسه بزاوية ١٨٠ درجة، كان لصوت عجلات سيارته في الدوران صرير يصم الآذان، كنت لا زلت في صدمة، لا أفهم لماذا فعل تلك الحركة الخطرة، تمالكت أعصابي وأدركت أنني إن لم أتصرف الآن وأهدئ من سرعتي فلا محال سوف أصطدم به.

العجيب أنه لم يتجه صوبي بل ظل واقفًا قاطعًا الطريق عليّ، وأنا وبعد أن هدأت من سرعتي أدركت أنه يضمر شرًا، في تلك اللحظة واتتني فكرة، وفي لمح البصر بدأت بتنفيذها، ظللت أقترب منه دون أي نية في الانحراف بسيارتي، أردت أن أخيفه، أردته أن يتراجع أولاً إلا أنه لم يفعل وخفت أن تنقلب خطتي علي.

في آخر لحظة قبل أن أرتطم به أجفل، إلا أن الوقت قد فات ليتحرك فانحرفت أنا بسيارتي ودرت حول نفسي وتوقفت السيارة، هنا ترجل من سيارته متجهًا إلي، كان كل شيء به يثير غثياني، من بنطاله إلى نظارته الشمسية، انتظرت دون حراك في مكاني حتى اقترب من سيارتي، وهنا انطلقت بأقصى سرعة لي بينما ظل هو واقفًا يحاول أن يفهم ما حدث للتو، كان عليّ أن أصل إلى منطقة مأهولة بالسكان قبل أن يستجمع شتاته ويأتي خلفي، قطعت الطريق بسيارتي كطير جريح يهرب من كاسر يطارده، كان هدفي أن أصل بأقصى سرعة، كنت أنظر في المرايا محاولة أن أرى إن كان قد تبعني، أصبحت المسافة بيني وبين العمران قليلة، بعض الكيلومترات، وفجأة رأيته خلفي، سرعته لا تقل عن ١٢٠ كيلومتر في الساعة، يقود كالمجنون، كان يعلم أنه عليه أن يزيد من سرعته ليلحق بي قبل العمران، أطلق العنان لبوق سيارته وأنا لا أعيره انتباهًا، كان عليّ أن أصل إلى العمران، حياتي تعتمد على ذلك، أصبحت المسافة بيننا قصيرة، حتى شعرت به يرتطم بمؤخرة سيارتي، ضغطت قدمي بحركة لا

إرادية على دواسة الوقود، فأتت الصدمة الثانية أعنف من الأولى، حاولت أن أنحرف يسارًا إلا أنه سابقني وارتطم بي مرة أخرى إلا أنه هذه المرة لم يبتعد بل بقي يدفع سيارتي إلى الأمام، حاولت الإفلات منه إلا أنه زاد من سرعته فأصبح هو المتحكم بحركة سيارتي، رغما عني كانت سيارتي تندفع وتتخطى إشارة حمراء في تقاطع كبير، ومن بعيد رأيتها، سيارة نقل ضخمة محملة بالحجارة كانت سترتطم بي لا محالة، فسائقها لن يستطيع التوقف على تلك السرعة، وهنا ضغطت بأقوى ما فيّ على دواسة البنزين، فأضاف هو من عزم سيارته وهذا ما كنت أريد تمامًا، أعطاني الدفعة التي أردت، ودون أن يدرك هو أنه خدمني، انطلقت في تلك اللحظة التي دهست بها سيارة النقل سيارته.... في ظروف أخرى كنت لأتوقف، كنت لأطلب الإسعاف، أعلم أن سائق النقل لن يستطيع التعرف عليّ، ومن زاوية قدومه لم يرَ أرقام لوحتي المعدنية، كنت قد اقتربت من شارع مكتظ بالناس، لا أدري كم من الوقت قد مر منذ حدثت الحادثة، ركنت سيارتي وتوقفت لألتقط أنفاسي، كيف لم أقف بعد الحادثة لأطلب الإسعاف، كيف لم أقف لأساعد، من تلك التي انطلقت مبتعدة بدم بارد، هي بالتأكيد ليست أنا، لم اضطررت إلى قتله هل كان هذا لزامًا عليّ فعلاً، لمَ لم أترجل من سيارتي وأحاول الحديث معه بصوت هادئ لعله يفهم أن ما يفعله لا يصح..... وهنا ارتفع صوت العقل

مرة أخرى... وهل كان سيسمع؟! لا، لأ أظن ذلك.... أم تراني أجبن من مواجهة رجل...

أخذت نفسًا عميقًا، ثم وضعت نظارتي الشمسية وانطلقت، وهنا مرت من أمامي بسرعة البرق، لم ألحظها إلا في آخر دقيقة قبل أن أصطدم بها، كانت تتحدث في هاتفها المحمول دون أن تعبأ بكونها تعبر الشارع، كبحت فراملي فجأة فأصدرت صوت صرير عاليًا، لم أصطدم بها، سقط الهاتف من يدها وهي تنظر إلي مذعورة، في تلك اللحظة فقدت أعصابي، لم أعد أتحمل، فتحت زجاج سيارتي وأخرجت رأسي:

."ألا أراحنا الله منكن أيتها الغبيات".

مدينة الفضيلة

عدلت من حجابي أكثر من مرة أمام المرآة، فهو زلق من كثرة طبقاته، تلك الصرعة السخيفة التي أجبرت الفتيات على الظهور بسنام الجمال، ولكنه ضرورة أن أبدو اليوم بأزهى حلة، فاليوم عرض وكل الفتيات سيكن بكامل زينتهن، ربما اليوم يكون يوم سعدي ويعجب بي أحدهم، أقف كل شهر في العرض في مدينتنا "مدينة الفضيلة" أنتظر أن يختارني أحدهم ولكن أحدًا لا يأبه لأمري، أعود لبيتي حزينة، تطيّب أمي خاطري بكلمات عن الصبر على قضاء الله، ثم تذكرني بحكمة الشيخ الحكم حاكم المدينة منذ وعيت على الحياة، حكمته في أن تعرض الفتيات في يوم العرض، اليوم الأول من كل شهر، حتى يرى الرجال جميع الفتيات مرة واحدة، فيستطيع الرجل أن يدقق الاختيار كيفما شاء فلا يعود نادمًا على امرأة من غير اختياره.

أومأت برأسي إيجابًا، فالشيخ حكم تزوج بنفس الطريقة زيجاته الأربع، عندما خرجت إلى صحن البيت كان صوت المذياع يعلو بصوت شيخنا وحاكم مدينتنا الحكم "نساء لا يدخلن الجنة ولا يشممن من ريحها....." وقفت جوار أبي أنا وأمي دون أن نتحدث منتظرتين أن يرانا، لم نجرؤ على مقاطعة استماعه للشيخ حكم، فهو ما يفضل عمله كل

صباح، أن يستمع لتفسير الشيخ حكم للآيات والأحاديث، خاصة بعد أن منع الشيخ حكم باقي علماء الدين من التفسير والوعظ، حتى لا يختلف الناس في أمور دينهم ويصبحون فرقًا، فأصبح هو رجل الدين الوحيد في مدينتنا، وعلم ابنه أصول الشرع ليخلفه من بعده، أما تلكم الكتب التي ألفها غيره من الواعظين فقد أعدمها شيخنا ليئد الفتن في منبعها.

نظر إلينا أبي وأخذ بيدي أنا وأمي بعد أن وضعت نقابها، وخرجنا من الدار من دون كلمة، خلف أبينا مشينا يقودنا عبر الطرقات الضيقة إلى سوق المدينة الأكبر، لم يتبق من أخوتي غيري، ليس منذ أن نفى الشيخ حكم العديد من الشباب منهم أخي إلى خارج مدينة الفضيلة فأصبحت أنا وأبي وأمي وحدنا.

كل مطلع شهر أساق عبر نفس الطرقات إلى ساحة المدينة مع غيري من الفتيات علَّ واحدة منا يصيبها حظ وتتزوج، كنت أنتظر اليوم، ليس طمعًا في الزواج قدر ما هو رغبة في الخروج إلى الطرقات التي حرمها علينا الشيخ حكم، أتباطأ في مشيتي، لأتنفس أكبر قدر ممكن من نسيم الهواء الحر، تمنيت لو استطعت الركض كما كنت أفعل وأنا فتاة صغيرة، ولكن هذا كان ليتسبب بعقاب أبي من الشيخ حكم، فالشيخ يعاقب ولي الأمر على مخالفات أبنائه، ولكن اليوم غير باقي الأيام، اليوم يجب أن أجد من سأتزوج وإلا اختار لي الشيخ حكم، فبعد مرات عدة من عودة الفتاة كل مرة دون زواج يكون على الشيخ تزويجها لأحد شيوخ المدينة من أتباع

الشيخ ممن لا زال لديه مكان لزوجة رابعة، وأنا لا أريد أن أخدم شيخًا وزوجته وأولاده، يكفيني رجل لا أعرفه ولكن على الأقل أبقى أنا زوجته الوحيدة، يجب أن أتزوج اليوم، لن أعود مع أمي وأبي، سوف أجد زوجًا، وثب الحزن في قلبي، معنى أن أجد زوجًا أن خروجات السوق لن تحدث مرة أخرى، سوف أبقى حبيسة الدار إلا إن شاء زوجي وأخرجني إلى حيث أمه وأمي، سوف أفتقد خروجات السوق برغم كل شئ، تغلبت على حزني عالمة أنه إن رآني أحد الباحثين عن زوجة متجهمة لن يريدني له زوجة.... وهذا يجب أن لا يحدث أبدًا، يجب أن أتزوج اليوم...

في ميدان المدينة اصطففنا وتركت يد أمي، كان وداعًا نقوم به كل مرة، عدلت من وقفتي وانتظرت أن يأتي طالبو الزواج ليشاهدونا، ثم تلاقت عيناي معه عندما رفعت رأسي، كانت عيناه مثبتتين علي، كان مليح الوجه، طويل القامة لا يكبرني بكثير، والأهم أنه كان ينظر إلي، أينظر إليّ أنا أم تراه ينظر لتلك التي بجانبي فهي مليحة وأصغر مني وهذا أول يوم لها في العرض، تلفت حولي لأرى لمن ينظر، لم يلحظ نظرته غيري، نظرت نحوه مرة أخرى وهذه المرة كان يبتسم، ابتسامة أضاءت قلبي، فابتسمت، ثم استحيت ونظرت أرضًا إلى موقع قدمي مرة أخرى، ربما ليس من السيء أن أتزوج على كل حال، خفت أن يظن أن حيائي رفضًا فنظرت إلى حيث كان مرة أخرى، لكنه لم يكن هناك، شعرت بغصة شديدة، لقد ظن أني رفضته وهنا شعرت بالفتاة بجواري تلكزني نظرت

إليها، ناولتني ورقة بظهر يدها وابتسمت، استدرت وأعطيت ظهري للحضور وقرأت الورقة... كانت منه "أومئ لي برأسك لو تقبليني" استدرت مسرعة وبحثت عنه بعينيّ في كل مكان، كان هناك في نفس مكانه، أومأت له برأسي مسرعة كالخرقاء، ضحك، واتجه ليتحدث مع الحاجب، ربما ليسأله عن أبي.

وهنا صمتت كل الأصوات فجأة، لقد وصل الشيخ حكم، لم يكن من الغريب أن يحضر الشيخ حكم عرض الزواج، ولكنه لم يأتِ آخر مرتين، ولم يعلم أحد السبب قط.

سمعت الفتاتين بجواري يتحدثان، إحداهما قالت إنه كان مريضًا طوال الفترة السابقة، بينما قالت الثانية إنها سمعت إشاعة أن إحدي زوجاته قد هربت، وتكتم بيته وأتباعه على الخبر ولكنه طلقها وأصدر حكمًا بهدر دمها.

لا أعلم لم انقبض قلبي لهذا الحديث، بقيت أجول بنظري بحثًا عنه ذلك الذي طلب موافقتي ولكني لا أستطيع إيجاده في أي مكان، وجدت زوجًا آخر من العيون يحدق بي، زوج يخلو من الروح، وكأنه زجاج ينفذ إلى غرفة مظلمة، لا أدري لِم، أشعروكأن عينيه تقيمان سورًا حول روحي يمنعني من التنفس، كنت أختنق وأنا واقفة في قلب ميدان، ولكن سوارًا وقيدًا من الكره أحاطني، فعيناه بالتأكيد لا تحملان حبًا.

لا أعلم كيف مر الوقت، ولا أدري أين ذهب، كنت أنظر إلى الورقة التي أعطاني إياها، لِم لَم يوقع باسمه، على الأقل أعرف ما اسمه، لم يبق لي منه سوى تلك الورقة وسؤال هو الأول في حياتي.

لكنه لم يأت ثانية، وجدتني أنزل من منصة العرض وأقتاد دون أدري، أنظر إلى أبي في عينيه، ولكنه لا ينظر إلي بالمثل، أما أمي فدموعها أغرقت نقابها، وهي تقبلني، أردت أن أسألها إلى أين ولكن أحدًا لم يرد علي، أُجبرت على صعود هودج ضخم وأنا لا أعلم لمن هو، وأحد لا يخبرني بما يحدث، ثم وجدته أمامي في الهودج ينظر إلي بعينيه الخاليتين من الرحمة، ودون أن يتحدث أغلق بابه علينا، وهنا نظرت من طاقة مفتوحة في الهودج أحاول استعطاف أمي أو أبي ولكني لم أجدهما، وهنا رأيته لآخر مرة، والدموع تغرق عينيه، كان هناك ليودعني، ليتركني أذهب مع غيره.

دكان الحقيقة

عجزت طيلة سني عمري الستة والعشرين عن فهم الناس، ظلوا بالنسبة إلي لغزًا محيرًا، كانوا يسخرون مني حين أتحدث، ثم يأخذني أحدهم جانبًا ليخبرني بسبب سخرية الناس مني، ينصحني "توقفي عن قول الحقيقة" أعجب لأمرهم.

لِم تسألونني عن رأيي إن كنتم لا تريدون الحقيقة، لِم تقتطعون من وقتكم وتستوقفونني لتسألوا إن كنتم تتألمون من الحقيقة.

قالت لي أمي يومًا "يا ابنتي لا تكذبي أبدًا وإن وضعوا فوق رقبتك سيفًا"، ثم لم تكررها، حتى أمي صارت تخشى حقيقتي، أتذكر ذلك اليوم وقت زارتنا خالتي، فسألتني لِم لا أقترب وأجلس بجوارها، فأخبرتها أن تستحم أولاً فأنا لا أطيق رائحتها، ضربتني أمي... وتوقفت عن أمري بقول الحقيقة.

كبرت على حالي، ولم يترك لي الحق صديقًا.

رأيت مرة فيلمًا عن دكان يعيش فيه رجل عجوز يبيع الأخلاق، فلما نفدت منه الأخلاق أغلق دكانه ورحل، وتفتقت في ذهني الفكرة، سوف أبيع الحقيقة لمن يشتريها.

تركت منزل أبي وذهبت إلى مكان بعيد بالصحراء وبنيت كوخي، لم يأبه برحيلي أحد، نصبت كوخي وكتبت لافتة على الطريق المقفر "دكان الحقيقة" وكتبت بخط أصغر تحتها "فقط لمن يريد أن يعرف الحقيقة".

لم أنتظر أحدًا، كنت أعلم علم اليقين أن لا أحد يحب الحقيقة، ولكن الواقع فاجأني، أتوا إلي أسرابًا باحثين عن الحقيقة...

كلٌ ظن أنني أمتلك الحقيقة المطلقة، فتتابعت علي الأسئلة، وقلت الحقيقة كما كان دأبي طوال حياتي، إلا أن أحدًا ممن سألوا لم يعد مرة أخرى، سألت نفسي لم؟ هل كذبتهم يومًا؟

حتى أتاني ذلك الزائر مرة أخرى، وقفت متأهبة في انتظار سؤاله، ولكنه باغتني قائلاً "من تظنين نفسك لتعطي الأجوبة للناس؟ أنت لست سوى فانية..".

وأمسك حفنة من الرمل وضعها على الطاولة أمامي وقال "أنتِ كهذا" وأشار إلى الرمال وتركني وخرج.

أغلقت دكان الحقيقة خلفه وعدت لمكاني مرة أخرى.... بين الفانين.

أضغاث أحلام

كانت شاردة الذهن ممسكة بيدي المقعد، بينما لا زالت تسبح في أفكارها، فكرت الطبيبة أن تبدأ معها حديثًا إلا أن الأولى فاجأتها قائلة "اجعليهم يختفوا" ثم باتت تكررها "أرجوكِ اجعليهم يختفوا".

أمسكت الطبيبة الشابة بيدها محاولة أن توقف ارتعاشة يدها قائلة "من هم يا عزيزتي".

ظل الصمت يعم المكان والطبيبة الشابة لا تريد أن تتعجلها في الرد، ثم قطعت أحلام الصمت قائلة "إنها تلك الرؤى، تلك الأحلام اللعينة التي لا تنفك أن تهاجمني صباحًا و مساءً".

كانت الطبيبة الشابة تخط شيئًا بيدها، بينما خرجت أحلام عن شرودها ونظرت إلى الطبيبة بعينين غائمتين من الدموع، سارعت الطبيبة بسؤالها مستغلة انفتاحها للكلام مرة أخرى:

."متى بدأت تلك الرؤى؟"

صمتت مرة أخرى ثم قالت:

. "لا أعلم؟ هل مررت يومًا بحادث سيارة؟ ربما لو مررت لعلمت، فإنك لا تعلمين متى بدأ ولا كيف انتهى، فقط تدركك التفاصيل المبهمة كمفاتيح سيارتك تتطاير في الهواء، أو لمعة الشمس فوق زجاج سيارتك،

تعلمين تلك الأشياء التي تلتصق بذاكرتك بلا مبرر..... هكذا هي أحلامي فقط مشاهد لامرأة تشبهني ولكنها ليست أنا".

وضعت الطبيبة قلمها وهي تسأل:

."أخبريني كيف تشبهك المرأة؟"

."ومن قال إنها تشبهني؟ تبدو مثلي هو التعبير الأدق، ولكنها لا تشبهني، هي ليست أنا.. هي سعيدة".

قاطعتها الطبيبة:

."أولست سعيدة؟"

شردت أحلام وهي تجيب:

."هل رأيت ميتًا سعيدًا"

."ولكنك لست ميتة!"

."آكل وأشرب وأتنفس ولا أعيش.. فقط أتواجد"

وهنا مدت أحلام يدها إلى الطبيبة قائلة:

."فقط اجعليها تتوقف"

وضعت الطبيبة يدها على يد أحلام وقالت:

."لم تريدينها أن تتوقف، لم تكرهين رؤيتها سعيدة؟"

."ربما لأني لست هنا في ذلك البعد الذي تعيش هي به، أقبع هنا، أفعل كل ما يتوقعونه مني، أهتم بالبيت، أطعم الأطفال، أغسل ملابس الزوج..... وبين كل تلك المهام يموت جزء مني أنا بينما تحيا هي، تحيا

حياتي، تلك اللعينة التي تأبى أن تتركني وشأني، تتباهى أمامي بسعادتها ولا تزن لحزني قيمة، أكرهها"

."لهذا حاولت الانتحار؟"

تجمدت أحلام في مكانها ولم تجب، أشاحت بوجهها بعيدًا عن الطبيبة وكأنها إن بعدت عنها بوجهها اختفت، كانت تتناسى أنها حاولت الانتحار، ولكن الطبيبة أبت إلا أن تتحدث:

."لم تكن تلك محاولتك الأولى أليس كذلك؟"

أعادت أحلام بصرها مرة أخرى إلى الطبيبة وكأنها قد استجمعت شجاعتها:

. "نعم لم تكن تلك محاولتي الأولى، ولكن المحاولات السابقة كلها باءت بالفشل"

كانت الطبيبة الشابة تعرف تمام المعرفة أن ما من شئ بيدها تستطيع فعله لتلك المسكينة، فالمسكينة سوف تظل تعاقب نفسها بأحلام لا سيطرة لها عليها، سوف يظل عقلها الباطن يطاردها ويذكرها بأنها خذلت نفسها وتخلت عن أحلامها..... لا لن تتوقف أضغاث الأحلام تلك، ما سيتوقف هو أنفاس أحلام نفسها عندما تنجح في الانتحار يومًا.

نظرت الطبيبة إلى أحلام بعد أن خطت بعض الكلمات الإنجليزية على ورقة وصفات الدواء، وقالت لها:

."سوف تساعدك تلك المهدئات على النوم العميق وسوف تشعرين بتحسن....."

قاطعتها أحلام وقد علت وجهها نظرة سخرية ممزوجة بمرارة:

."لا لن تفعل، لا شيء سوف يفعل، ولكن ليس لديك ما تقدمينه لي أليس كذلك؟!"

وقفت واتجهت لباب الغرفة من دون إجابة، من دون أن تنظر خلفها، وفتحت الباب ورحلت.

الداعية

."ومعنا الآن اتصال هاتفي من القاهرة، السيدة أم حسن، تفضلي يا سيدتي، الداعية كريمة الزاهد معك، تفضلي اسألي"

."سلام عليكم يا داعيتنا الفاضلة"

."وعليكم السلام يا أم حسن تفضلي"

."أنا من أشد المعجبات بك سيدتي وبآرائك التي تنصر المرأة وتبين الحق لأعداء الأمة الذين يقولون بأن الإسلام ظلم النساء، أدامك الله زخرًا لديننا الحنيف"

الداعية وقد اصطنعت الخجل:

."شكرًا لك سيدتي، هل لك حاجة تريدينني أن أجيب عنها؟"

."نعم إنه أخي، بعد أن مات أبونا ورثت أنا وهو مما ترك والدي، وكان زوجي رقيق الحال فساعدته بما جاد الله عليّ به"

."خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة يا سيدتي"

."أشكرك، ولكن زوجي تزوج الآن، بعد أن رزقه الله، فتاة صغيرة في عمر بناتي"

اكفهر وجه الداعية وكأنها على وشك الانفجار:

."هو شرع الله، ورخصة من رخصه، والله يحب أن تؤتى رخصه"

قاطعتها أم حسن:

."أعلم سيدتي ولم أعترض، بل احتسبت صبري عليه ومعه عند الله سبحانه وتعالى، ولكنه يأبى أن يرد عليّ مالي الذي أقرضته، وأنا بحاجة للمال"

."هل عندما أعطيته المال كان على سبيل القرض أم الهبة"

."الهبة"

."إذًا فليس عليه حرج أن لا يرده"

."أعلم سيدتي فهذا ما قاله لي بعد أن سأل شيخه، ولهذا اتجهت لأخي، فقد قرأت أن حكمة أن للذكر مثل حظ الأنثيين هي أن الذكر قد يعول أخته حال احتياجها للمال، ولكنه رفض"

."أنتِ في عصمة رجل سيدتي وأخوكِ ليس ملزمًا بك"

."أعلم هذا فقد سأل شيخه وأجابه بنفس الإجابة، ولذلك كنت قد قلت له إنني أنوي الطلاق من زوجي ولكني لا أملك من المال شيئًا، فرفض أن يعينني"

."أيعينك على طلاق؟ هو لا يجوز يا أختي، ثم ما حاجتك للمال؟"

."هو مالي من دون أن تكون لي به حاجة، هو مالي وأريده"

."أختاه أنت تفتحين بابًا للشيطان، اقبلي بما ينفقه عليك زوجك ولا ترهقيه بكثرة الطلبات، ولا تحملي أخاك ما لا طاقة له به، وارضي واحتسبي"

."أوليس الطلاق حقي شرعًا؟! أوليس أخي ملزمًا بي؟... أنا أريد أن أعرف حكم الشرع فيما أنا فيه أين حقوقي الشرعي.....

"نأسف انقطع الاتصال، السيدة أم حسن حاولي الاتصال بنا مرة أخرى، واصبري، والطلاق لم يك أبدًا حلاً وإن كان حقك الشرعي، ماذا تفضلين يا أختاه حقوقك الشرعية في الدنيا أم الجنة في الآخرة....

ابتسمت مقدمة البرنامج للداعية وقالت:

."دمت دومًا يا داعيتنا صوتًا للمرأة العاقلة"

. "أرجو أن يفهمن أن حماية بيوتهن هي أولى من المطالبة ببعض الأموال السخيفة وهي عند الله أفضل"

."ومعنا اتصال آخر، الأستاذ حسن من دمنهور اتفضل"

."سلام عليكم يا داعيتنا"

."وعليكم السلام يا بني تفضل"

."زوجتي يا داعيتنا، ترفض إعطائي حقوقي الشرعية"

."هل هي مريضة بمرض عضال، كالسرطان، أو قعيدة"

."لا يا سيدتي، هي تدعي أنها تكرهني ولا تريدني بعد الآن، وأنا صبرت على حقوقي الشرعية كثيرًا ولكني لم أعد أطيق صبرًا، ماذا أفعل"

."هي حقوقك الشرعية الحلال التي أقرها لك دينك فلا صبر عليها، وأساليب التأديب معروفة ومنصوص عليها، فعليك بتأديبها، وإن لم يُجدِ معها فأتِ بأحد من أهلها"

."شكرًا لك سيدتي"

نظرت الداعية إلى المذيعة وقالت:

."ولذلك أغلب أهل النار من النساء، كيف تتمنع المرأة على زوجها وتحرمه حقوقه الشرعية، ماذا حدث لنساء اليوم؟!"

الفهرس

ذات صباح	٩
على الطريق	١٥
رانيـا	١٩
نعم لا زلت آنسة	٢٣
من بعيد	٣٣
الرجل الأخير في مدينة السعادة	٣٩
صديقي	٤٧
ألا يخلصنا الله منكن	٥٣
مدينة الفضيلة	٥٩
دكان الحقيقة	٦٧
أضغاث أحلام	٧١
الداعية	٧٧

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017

طبعت بمطبعة يسطرون

01229300029 - 01157760052 - 01030244751